

مفهوم الرشد ومضاداته في القرآن

العناية بالمفاهيم القرآنية جزء ضروري من الثقافة القرآنية التي ينبغي أن يتمكن منها المسلم المعاصر لأن جزء من الإصابات التي تعرضت لها الأمة كانت في مفاهيمها، التي وجهت إليها الحداثة وما قبلها التغريب مدافعهما من أجل إحداث خلل في البناء الثقافي والتربوي في شخصية المسلم، وسوف نتناول في هذه المقالة الموجزة أحد هذه المفاهيم، وهو مفهوم “الرشد: ومضاداته في القرآن الكريم”.

والرشد لغة ضد الغي والضلال، والرشد: ضد السفه وسوء التدبير، وبلغ أشده: بلغ كمال عقله وحسن تصرفه للأمور. [1]
والرُّشْدُ عند الفقهاء : أن يبلغ الصبي حد التكليف صالحًا في دينه مصلحًا لماله، وفي القانون: السن التي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته. [2]

جاء الرشد في القرآن على خمسة معان فصلتها آياته، وهذه المعان هي:

1 - الهدى والحق والإيمان (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة / 186]
(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا) [البقرة / 256].

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) [الكهف / 10].

وكذلك **سورة الجن** [2 ، 10 ، 14]، الكهف [24]، والأنبياء [51].

2 - البلوغ والأهلية للتصرف في المال وسداد الرأي، وذكرت في موضع واحد (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) [النساء / 6].

3 - الصلاح (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) [الأعراف / 146] والمقصود هنا بسبيل الرشد طريق الصلاح.

4 - العلم (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) [الكهف / 51].

5 - النفع (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا رَشَدًا) [الجن / 21].

الرشد في علم النفس

اهتمت نظريات علم النفس الحديث بمرحلة الرشد فيما يتعلق بالجانب العقلي، جانب نمو الإدراك والوعي للإنسان وتعرف بأنها ذروة الإنتاج الإنسان وتمتد من سن 21 - 40 عامًا، وتتسم هذه المرحلة بالاستقرار والاستقلالية واتخاذ القرارات المهمة في حياة الفرد، كما أنها ترتبط بالنمو المتكامل في الجوانب الأخلاقية والصفات الاجتماعية والعقلية والفسولوجية. وتكوين الهوية والقيم الرئيسة لحياة الإنسان.

وتمثل مرحلة الرشد نقلة مهمة في نمو الإنسان، سواء الجسمي أو الاجتماعي أو العقلي، وهذا الأخير هو أهم ما يميز مرحلة الرشد، وتوجد مقاييس مختلفة يقاس بها نضج الفرد وانتقاله من مرحلة الطفولة والمراهقة إلى مرحلة الرشد/النضج والتي أهم ما يميزها هي النضج العقلي، والقدرات الرئيسية الأربعة لهذه المرحلة والتي تكون أكثر نضجا في مرحلة الرشد المبكر هي: [3]

1 - القدرة على إدراك تفسيرات عديدة لنفس الظاهرة أو حلولاً عديدة لمشكلة واحدة.

2 - القدرة على التعامل مع احتمالات تناقض الواقع والمواقف المتصورة.

3 - القدرة على التعامل بالرموز والمفاهيم المجردة كما في الرياضيات.

4 - القدرة على استخدام الاستعارة ورموز الرموز.

الإطار العام لمفهوم الرشد

الإطار العام الذي يحده مفهوم الرشد لغوياً وقرآنياً هو حدود الهدى والحق والصواب والصالح والنفع والعلم والبلوغ العقلي وسلامة الوجدان.. وهذه العناصر لازمة - بل مكون أساس - لشخصية الإنسان المستخلف، وتعكس حالة الحرية، الفطرة التي يولد عليها الإنسان، والتي تتيح له الاختيار من بين متناقضين:

- (لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً)

- (سبيل الرشد وسبيل الغي)

- (المسلمون والقاسطون)

- (الضر والنفع) (العلم)



كما أنها تعكس حالة السعي والجهد الذي يبذله الإنسان المستخلف، وهي حالة المجاهدة الذاتية الداخلية (فَأَلَّهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، والعوامل الخارجية (العوائق المادية والفكرية) التي تحول دون وصول الإنسان إلى الهدى والحق أو تحرف مساره بدعاٍ متعددة.

وتتضح أوجه التلاقي بين مؤشر الجانب العقلي لمرحلة الرشد بحسب -بحوث علم النفس- والمعنى القرآني الذي يقيم مرحلة الرشد بحسب القدرة على التصرف في المال، وسداد الرأي في أمور الحياة، والتي تتطلب بدورها نمو القدرات العقلية لدى الفرد ليتحقق النضج المناسب في السلوك الإنساني.

يمكن -في ضوء ما سبق- أن نحدد المبادئ والقيم الأساسية التي تحكم بناء مفهوم الرشد في القرآن، وهذه المبادئ هي: الهدى، والبلوغ والأهلية، والصالح، والنفع.

1 - **“الهدى”**: هو محور الكون وحركته، ويتعلق الهدى بمبدئية التوحيد، والذي يعني أن الكون كله من الله (أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ) وإليه (إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)، وهي حركة لازمة لاستقامة حياة الإنسان بل وكل المخلوقات حتى الجماد، والانحراف في هذه الحركة -أي الانحراف عن الهدى والإيمان- يضر كل المخلوقات وحتى الجماد.

2 - و **“البلوغ”** يرتبط بأهلية الإنسان وتأهله لاستقبال فعل الاستخلاف، وإحدى مظاهره في مفهوم الرشد هو المال، ويتعلق المال والتعامل معه في القرآن بالقيام بواجب الاستخلاف، وهو -أيضا- أحد مظاهر هذا الواجب (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِقِينَ فِيهِ [الحديد/7]). ومؤشر البلوغ هنا هو النضج العقلي، لذا فالعقل له مكانته المميزة في الوحي، وفي المعرفة، وفي الاعتبار، وكذلك في **الإيمان بالله** من خلال إدراك آثاره وآياته الماثلة في الكون، والعقل -أيضا- مناط التكليف في الإسلام، فلا تكليف لطفل أو مجنون.

وقد انفرد المنهج القرآني في تذكير الإنسان بالعودة إلى ذاته أو إلى شعوره كي يعلم ويعقل؛ ذلك لأن التوجيه إلى آثار العقل وآياته هو الدليل القريب إلى حقيقة الإنسان، إذا وجده الإنسان وعرف حقيقته وميزه عن الجهل وفرق بين أحكامه الصائبة وخيالات النفس، وإذا استيقظ العقل داخل الذات بالتذكير به والتوجيه إليه، استطاع الإنسان أن يسكن إلى نفسه ويثق بفكره ويهتدي إلى السبيل إلى كل علم وكل خير. [4]

3 - أما مبدئية **“الصالح”** فإنه يعني تحمل الإنسان لمسؤولياته تجاه الكون، أي الانتقال من حالة هداية الذات إلى هداية العالم، وهو ما يستوجب من الإنسان عمليتين متكاملتين الأول: نقض الفساد وهدمه، والثاني طرح الهدى والإيمان مقابل هذا الفساد سواء كان هذا الفساد في الإيمان أو في طرق التفكير.



4 - “**العلم**” - الركن الرابع في إطار مفهوم الرشد- هو أداة العمران، وهو التفضيل الذي فضل الله به الإنسان على الملائكة فقد ذكر في حوار الملائكة مع الله حول “خلافة الإنسان” في الأرض أكثر من مرة، وهو أداة لاكتشاف الله في الكون والخلق (فَاتَّبَعَ سَبَبًا* ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا) (سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ).

والعلم هو أحد الأدوات اللازمة لحركة الإنسان في الكون وإعمار به بجانب الموارد البشرية والمادية، وهو الذي يقوم باكتشاف السنن في النفس والأفاق بما ييسر للإنسان استغلال الطبيعة المسخرة في الأصل للإنسان، وبما يساهم في تحقيق غاية العمران في صورتها الإيجابية حينما يرتبط العلم بالهدى والإيمان. وليس كأداة للقهر الإنساني والحروب وصرف الإنسان عن الهدى والحياة الطيبة، كما ارتبط بالمذاهب الوضعية القائمة على المرجعية المادية وتجاوز الخالق.

ومن ناحية أخرى فإن مكانة الخلافة الإنسانية تعتمد أساساً على “العلم” الذي علمه الله لآدم، فلم يكن من الممكن أن يعطي الخلافة الجاهل، ولقد ذكرت - في حوار الله مع الملائكة - كلمة خليفة مرة واحدة، بينما ذكر مشتقات العلم سبع مرات، وكانت مقدمات إلهية لاختيار الإنسان خليفة على الأرض يبلغ رسالات الله وأوامره ونواهيه.

5 - أما مبدئية “**النفع**” فهي فعل رئيس في تحقيق غاية العمران في الكون التي هي ملازمة لتحقيق فعل “العبودية” وغاية الخلق، والتي هي - أيضاً - وظيفة الاستخلاف (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات/56].

فالنفع مبدأ رئيس وقيمة للعمران بصفته الملازمة له وهي “المكوث” في الأرض، فالنفع دائماً يمتد أثره في البناء الإيجابي ويفيد الإنسان في وراثته الأرض وتعميرها، على نقيض الفساد الذي يقف عائلاً أمام حركة الكون والمخلوقات في سيرها إلى الله تعالى (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ) [الرعد/17].

مضادات الرشد

يطرح القرآن على متصل الرشد مضاداته أو مقابلاته لجذبية البيان وتثبيت المعنى المراد توضيحه، فأسلوب التقابل من الأساليب التي اعتمدها القرآن في بناء الهوية القرآنية لدى المؤمنين. والمقابلة في اللغة بمعنى التضاد، ويعرفها الباقلاني بقوله “المقابلة هي أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده” [5]

فالهدى - كإطار لمفهوم الرشد - يقابله/يضاده: الضلال أو الغي (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).



والغي من يغوي غيًّا غواية: انْهَمَكَ فِي الْجَهْلِ وَهُوَ خِلَافُ الرُّشْدِ، والغي - أيُّضا - واد في جهنم (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) أي جزء الغي أو يدخلون وادي الغي في جهنم. [6]

والبلوغ العقلي أو السداد في الرأي والتصرف، يقابله/يضاده السفه: أي الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ). وهذا المعنى أيُّضا - السفه- مضاد لمفهوم العلم : سفه نفسه: حملها على السفه أي الخفة والطيش، فكانه حمل نفسه سفيها، وهو ما يبدو واضحا في قوله تعالى (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي جهلاً وحمقاً.

و"النفع" - الركن الرابع لمفهوم الرشد- يقابله/يضاده الضرر، و الضَّرُّ من الضَّرُّ وهو : سوء الحال إما في نفسه لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه لعدم جراحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مالٍ وجاه. وجاء الضرر مقابل للنفع في مواضع شتى:

(يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) [الحج/13].

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) [الفرقان/3].

وأما "الصالح" فيقابله "الفساد"، والفساد : خروج الشيء عن الاعتدال ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة. [7] وجاء الفساد مقابلاً للصالح في مواضع شتى من القرآن: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس/80] . (اللَّهُ يَغْلِبُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ).

[1] إبراهيم احمد عبد الفتاح: القاموس القويم للقرآن الكريم، باب الرءاء.

[2] مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: مادة رشد.

[3] عادل عز الدين الأشول: علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 614.

[4] راجع عبد الحميد: نظرية المعرفة بين القرآن والسنة، ص (161).

[5] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 28.

[6] القاموس القويم.



[7] مفردات ألفاظ القرآن.